

التفكيكية بين التأويل والتقويض

إعداد الباحث

سعد إبراهيم سعد العمري

معلم بوزارة التعليم - المملكة العربية السعودية

ملخص : -

ظهرت التفكيكية كتيار نقدي جديد، عُرف بما بعد بالحدثة، وأحدث ثورة على مستوى القيم الأدبية، بعدما اكتسح الساحة الفكرية والنقدية الأدبية معاً، كما وأنها تعد من أهم مداخل نظريات النقد المعاصر.

والتفكيكية لها معنيان في آن واحد، فالأول فضفاض والآخر محدود، والتفكيكية تتجلى في أنها تقوض مفهوم الحقيقة بمعناه الوضعي التجريبي وتحول سؤال الفكر إلى مجالات اللغة والتأويل.

وتناول هذا البحث دراسة مفصلة للنظرية التفكيكية وإدراك العلاقة بينها وبين التأويل والتقويض، وتحديد مفاهيم المصطلحات المختلفة التي تناولتها النظرية التفكيكية، فتارة يطلق عليها التقويض وتارة ألفاظ أخرى، سنتناولها في هذا البحث.

تناول الباحث في الفصل الأول التعريف بالنظرية التفكيكية، وتناول خلال هذا الفصل مبادئ النظرية التفكيكية، والقراءات التي قرأتها التفكيكية والمصطلحات التي اقترحتها، ثم تناول في الفصل الثاني قضية التفكيك وفن التأويل، تناول خلاله الباحث التعريف بالتأويل ونشأته، والفلسفة التأويلية وعلاقتها بالتفكيكية، ثم تناول في الفصل الثالث التفكيكية والتقويض، التعريف بمصطلح التقويض، والعلماء الذين اقترحوا هذا المصطلح، وتاريخ نشأته، وعلى ماذا يدل هذا المصطلح وعلاقته بالتفكيكية. ثم تناول الباحث الخاتمة وأهم ما توصل إليه، ثم قائمة المصادر والمراجع.

Abstract

Deconstruction emerged as a new monetary movement, known as postmodernism, and revolutionized literary values after sweeping the intellectual and literary criticism landscape together. It is also one of the most important entries for contemporary criticism theories.

Deconstruction has two meanings at the same time. The first is broad and the other is limited. Moreover, deconstruction manifests itself in that it undermines the concept of truth in its experimental positional sense and turns the question of thought into the fields of language and interpretation.

This research is a detailed study of the deconstructive theory, understanding the relationship between it and interpretation and undermining, and defining concepts of the

various terms that the deconstructive theory dealt with, sometimes it is called undermining and at other times, we will discuss it in this research.

The researcher discussed in the first chapter the definition of deconstructive theory. It also dealt with the principles of deconstructive theory, the readings that the deconstructive movement read and the terms it proposed. The second chapter dealt with the issue of deconstruction and the art of interpretation. The researcher also dealt with the definition of interpretation and its interpretation, the interpretation philosophy and its relationship to deconstruction. As for the third chapter, deconstruction and undermining were discussed, the definition of the term undermining, the scholars who proposed this term, and when it originated, and on what this term denotes and its relationship to deconstruction. Finally, the researcher discussed the conclusion and the most important findings, then a list of sources and references.

مقدمة : -

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمي الأمين، محمد ابن عبد الله وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

أما بعد:

تعد الفترة التي جات بعد الحداثة فترة تفكيكية للنماذج المعرفية التي افترضت وجود غائبة، أو افترضت من ثم مصدرا متعاليا للمعرفة، يقرر المعني والحقيقة والقيم، والمبادئ والسلوك وبالتالي السلطة.

إن التفكيكية استراتيجية في قراءة النصوص ظهرت في نهاية الستينيات وأخذت تتبلور وتتشأ كبديل عن الطرح البنيوي، حيث أخذت تتبلور أفكارها الأولى على أنقاض المنهج البنيوي إلا أنها لم تكتمل أصولها بعد ولعل مرد ذلك إلى كون المنظرين للتفكيك هم رواد البنيوية وعلى فيرأسهم رولان بارت وجاك دريدا حيث كانت دعوة التفكيكية كاستراتيجية نقدية، لنقض وتقويض النصوص.

وسنتحدث في هذا البحث في قضية تخص التفكيكية، حيث سيتم التعريف بالتفكيك والمنهج التفكيكي، ونشأته، وتطوره، وجذوره، هذا في الفصل الأول، أما الفصل الثاني فسيتناول التفكيكية والتأويل، ثم سنتناول التفكيكية والتقويض في الفصل الثالث.

أهمية البحث:

- ١- التعرف على العلاقة بين التفكيكية والتأويل من جهة والتقويض من جهة أخرى.
- ٢- تزويد المكتبة العربية ببحث جديد عن التفكيكية.

أهداف البحث:

- ١- التعريف بالمنهج التفكيكي ونشأته وتطوره وجذوره.
- ٢- التعريف بالتأويل ومعناه وعلاقته بالتفكيك.
- ٣- التعريف بالتقويض ومعناه وعلاقته بالتفكيك.

خطة الدراسة:

يضم البحث مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة ومصادر ومراجع.

- المقدمة: وتضم التعريف بموضوع الدراسة بشكل عام. والأهمية والأهداف.
- المبحث الأول: تعريف النظرة التفكيكية.
- المبحث الثاني: التفكيكية وفن التأويل.
- المبحث الثالث: التفكيكية والتقويض.

الفصل الأول: تعريف النظرية التفكيكية

يقول جاك دريدا في كتابته الكتابة والاختلاف "ليس التفكيك منهجا" (١)، كما أنه أيضاً ليس نظرية عن الأدب ولكنه استراتيجية في القراءة: قراءة تلك الخطابات الفلسفية والأدبية والنقدية من خلال التوضع داخل الخطابات، وتقويضها من داخلها، من خلال توجيه الأسئلة وطرحها عليها من الداخل، وإذا ما علمنا أنه ما من نظرية نقدية إلا وبنيت على خلفية فلسفية وفكرية.

أسست استراتيجية التفكيك على رفض الميتافيزيقيا الغربية التي هي أيديولوجيا المجموعة العرقية الغربية في نظر دريدا، قصد تقويض التصور الذهني الذي أرسته الفلسفة الغربية، والقائم على تكريس المقابلات الثنائية، مثل (الكلام/الكتابة، الحضور/الغياب، الواقع/الحلم، الخير/الشر وغيرها) ومن ثم اجترح مفاهيم ثورية جديدة مثل: (الاختلاف Defferencé ، الذي يعني المغايرة والتأجيل ونقض التمرکز حول العقل Logocentrism).

ظهرت التفكيكية كتيار نقدي جديد، عرف بما بعد الحداثة، وأحدث ثورة على مستوى القيم الأدبية، بعدما اكتسح الساحة الفكرية والنقدية الأدبية معاً، وتعد من أهم مداخل نظريات النقد المعاصر.

(١) الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٦١.

وأقامت التفكيكية صرحاً جديداً للوقوف على الدعائم الراسخة في الفكر الإنساني لتخلخل نسقيتها ومن ثمة تفكك ما هو موجود وقار كمرکز لا يجوز بأي حال خلخلته أو مس بنيته التحتية باعتباره مقدساً اكتسب قدسيته بأقدميته.

وترجع جذور التفكيكية في النقد المعاصر إلى الندوة التي نظمتها جامعة جون هوبكنز حول موضوع اللغات النقدية وعلوم الإنسان في عام ١٩٦٦م، حيث كان هذا التاريخ أول إعلان لميلاد التفكيكية، وهو العام الذي ألقى فيه الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا ورقته المعنونة "بالبنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية" ثم ضمنها بعد ذلك كتابه "الكتابة والاختلاف" وقد تميزت هذه الورقة بقطيعة معرفية واضحة مع الافتراضات النظرية التي تنطوي عليها النزعة البنيوية، فذاعت على الفور بوصفها إيذاناً بظهور حقبة " ما بعد البنيوية " (١). وقد اشترك في تلك الندوة مجموعة من النقاد والباحثين مثل : رولان بارت وتودوروف ولوسيان جولدمان وج. الكان وجاك دريدا الذي شارك كما ذكرنا بمدخلة أرسى فيها أسس التفكيكية.

تغلغت التفكيكية في البيئات النقدية الأدبية في بداية السبعينيات، بعد نشر دريدا لكتابه "الكتابة والاختلاف" وعلم الكتابة" أو "عن علم الكتابة". وبدأ يبرز كمنظر حقيقي للتفكيك وربما لم يحظ النقد التفكيكي في أوروبا بنفس الحظوة التي لقيها عند جماعة بيل، وإن يكن رولان بارت من أكثر النقاد استيعاباً للفرضيات التفكيكية.

ويعد الناقد الفرنسي رولان بارت من النقاد اللامعين الذين أسهموا في استراتيجية التفكيك، ويمكن تحديد بارت في إطار واحد، فعدا كونه المحامي الصلب عن البنيوية السميولوجية وعن علم الرواية وعن النقد النفسي، فهو يمتلك شخصية عبقرية وفوضوية وحيوية لم تحده القيود الأكاديمية، حتى إنه ليصعب في كثير من الأحيان نسبه إلى منهج واحد، بل ربما بدا مساهما في كثير من التيارات النقدية المعاصرة وقد كان إسهام بارت في التفكيك سابقا على مولد الحركة نفسها التي تنسب بحق إلى دريدا الذي طرح مفاهيمها وقام بتأصيل استراتيجياتها، فبارت وعلى مدى ربع قرن من الزمن أسهم في الفكر البنيوي وفي التنظير النقدي لحقول عديدة، كما أسهم في تطوير مفهوم " الكتابة " تنظيرا وتطبيقا.

وثمة ناقد آخر لا بد من الإشارة إليه ونحن نتحدث عن الجذور التاريخية للتفكيكية، ذلك هو الناقد الأمريكي بول دي مان الذي أصل نظرية في القراءة التفكيكية في كتابيه (العمى والبصيرة، وأليغورات القراءة). وقد أبرز دور دي مان ونقده التفكيكي جوناثان كلرن في كتاب: في التفكيكية ١٩٧٢، أما مجموعة نقاد بيل Yale الذين ظهرت في أمريكا الشمالية فقد اهتموا، على اختلاف تكويناتهم الفكرية واتجاهاتهم الثقافية، في الثمانينيات، بعدد من القضايا النقدية منها: نظرية القراءة والتفكيك وقد نشرت معظم آراء هؤلاء النقاد التفكيكيين في كتب مهمة

(١) البنيوية والتفكيك، مداخل نقدية مجموعة من الكتاب، تر: حسام نايل، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١،

٢٠٠٧م، ص١٧٧.

بالإنجليزية، ولعل من أبرز النقاد التفكيكيين الأمريكيين الذين أثروا الحركة التفكيكية تنظيرا وتطبيقا: بول دي مان و هارولد بلوم و جيفري هارتمان و هيليس ميللر (١).

مفهوم التفكيكية:

تدل كلمة تفكيكية معجميا على الهدم والتقويض والتخريب والتفكيك والتشريح، وقد استعيرت الكلمة من حقل استخدامها الأصلي العمارة إلى ميدان الفكر، لتصبح مصطلحا يدل على وضع غالبية التقاليد الميتافيزيقية والفلسفية الغربية موضع التساؤل والنقد الجذري.

والتفكيكية هي المقابل الغربي لكلمة deconstruction ذات الدلالة الفلسفية النقدية المعتادة إلى درجة أن رائدها جاك دريدا يقدم لنا الفعل التفكيكي بهذه اللغة " اللارادية " على أنه ليس تحليلا analyses ولا نقدا critique (٢) ليس التفكيك منهجا ويمكن تحويله إلى منهج خصوصا إذا ما أكدنا على الدلالة الإجرائية أو التقنية ثم يتساءل: ما الذي ال يكون التفكيك ؟ كل شيء. ما التفكيك؟ لا شيء (٣).

كما أنه ليس نظرية في الأدب، كما يرى خوسيه ماريا إيفان كوس أن التفكيكية ليست نظرية عن اللغة الأدبية إنما هي طريقة لقراءة أو إعادة قراءة الفلسفة وخطابات العلوم الإنسانية (٤).

على حين يرى الناقد الأسترالي ديفيد بشبندر أن التفكيك مقارنة فلسفية للنصوص أكثر مما هي أدبية إنه نظرية بعد البنوية structuralist post ولا تدل (بعد) هنا على أن التفكيك يحل محل البنوية باعتباره نظرية أحدث زمنيا ولكنها تدل بالأحرى على أنه يعتمد على البنوية كنظام تحليلي سابق وهو أيضا " نظرية تهدف إلى إنتاج تغييرات لنصوص خاصة أقل مما تهدف إلى فحص الطريقة التي يقرأ بها القراء هذه النصوص (٥).

تسعى التفكيكية إلى تحرير النص الحي المفتوح من قيد القراءة الأحادية المغلقة القائلة، فقد كان دريدا - على حد تعبير أمبيرتو إيكو - يبتغي تأسيس ممارسة فلسفية أكثر منها نقدية تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصريح.

(١) دليل النظرية النقدية المعاصرة، بسام قطوس، جار فضاءات للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م، ص ١٤٩، ١٥٢.

(٢) الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، تر: كاظم جهاد، ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٤) مناهج النقد الأدبي، يوسف وغيلسي، دار جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، ط ٣، ص 174 .

(٥) نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ديفيد بشندر، عبد القدوس عبد الكريم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٧٥.

التفكيك هو نقنّيش يقظ عن " السقطات " أو نقاط العمي، أو لحظات التناقض الذاتي حيثما يفصح الإرادية التوتر بين بالغته ومنطقه بين ما يقصد قوله ظاهريا، وما يكره على أن يعنيه رغما عنه .إذا أصبح جليا الآن أن التفكيكية تحاول أن تكشف عن تناقضات النص وشروخه ، ووهم الاستقرار الذي يحاول أن يوحي به، وكل ذلك من أجل زعزعة وخلخلة وهم المعنى المنسجم أيضا الذي يخلص إليه الناقد أو المؤول على حساب فائض المعنى الذي يتدفق من النص.

مبادي النظرية التفكيكية:

إن التفكيكية استراتيجية في قراءة النصوص ظهرت في نهاية الستينيات وأخذت تتبلور وتنشأ كبديل عن الطرح البنيوي، حيث أخذت تتبلور أفكارها الأولى على أنقاض المنهج البنيوي إلا أنها لم تكتمل أصولها بعد ولعل مرد ذلك إلى كون المنظرين للتفكيك هم رواد البنيوية وعلى رأسهم رولان بارت وجاك دريدا حيث كانت دعوة التفكيكية كاستراتيجية نقدية، لنقض وتقويض النصوص، معتمدة في دعواها على جملة من المبادئ أهمها (١):

- عدم قصدية المؤلف في المعنى: وهذا ما يفتح الباب أكثر لتعدد القراءات أو ما يسمى بال نهائية الدلالة فاسحا المجال أمام التأويل والهدم وإعادة البناء .
- نفس الحدود القائمة بين النصوص: أو ما يعرف بالبينصية Intertextualit .
- التشكيك في القيم والثوابت : إذ زعزعت النصوص بالشك ورفضت التقاليد والقراءات المعتمدة.

القراءة التفكيكية:

اختلف في ترجمة مصطلح "ديكونستركشن (deconstructions) "إلى العربية، فترجم بالتفكيكية، والتقويض. وترجمه بعضهم بالتشريحية. ولكن الأول أكثرها تداولاً، والأخير أبعداها عن الدقة (٢).

المصطلح مضلل في دلالاته المباشرة، لكنه ثري في دلالاته الفكرية، فهو في المستوى الأول يدل على التهديم والتخريب والتشريح، وهي عادة تقترن بالأشياء المادية المرئية.

لكن المصطلح في مستواه الدلالي العميق يدل على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها، والاستغراق فيها وصولا إلى الإلمام بالبؤر الأساسية المطمورة فيها. يقول الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا (Jaques Derrida) في حوار مع كريستيان ديكان: "إن التفكيك حركة بنيانية وضد بنيانية في الآن نفسه، فنحن نفكك بناء أو حادثا مصطنعا لنبرز بنيانيه وأضلاعه وهيكله ولكن نفك في آن معا البنية التي لا

(١) جاك دريدا، محمد شوقي الزين، ص ٢١.

(٢) مناهج النقد الأدبي الحديث، وليد قصاب، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٩م، ص: ١٨٢.

تفسر شيئاً فهي ليست مركزاً ولا مبدأً ولا قوةً فالتفكيك هو طريقة حصر أو تحليل يذهب أبعد من القرار النقدي (١).

وما يؤكد التفكيك ويتحول عنده إلى هدف هو أنّ الخطاب ينتج باستمرار، ولا يتوقف بموت كاتبه، ولهذا فهو يدعو إلى الكتابة بدل الكلام لانطوائها على صيرورة البقاء بغياب المنتج الأول، في حين يتعذر ذلك بالنسبة للكلام، إلا في حدود نطاق ضيق، وبفهم العلاقة الجدلية القائمة بين ثنائية الحضور والغياب في جسد الخطاب باعتبار الحضور رهينة مرئية والغياب ظلالة الكثيفة العميقة الغائرة، وهو المدلول الذي يفتح على خاصية القراءة المستمرة في حوار مع القارئ.

نشأت التفكيكية عن "ما بعد البنيوية" في أواخر الستينيات على وجه التقريب. وترتبط التفكيكية أو التقويض باسم دريدا، الذي عرف بتعدد جوانبه وخصب اهتماماته، فهو فيلسوف وقارئ نصوص من التراث الفلسفي الغربي (٢).

ولقد وجه هذا الفيلسوف انتقاداً حاسماً للفكر البنيوي، فلقد ذهب إلى أن فكرة "البنيوية" كانت تفترض دائماً "مركزاً" من نوع ما للمعنى حتى في البنيوية، هذا المركز يحكم البنية، ولكنه هو نفسه ليس موضوعاً للتحليل البنيوي.

وذهب دريدا إلى أن البشر يرغبون في مركز لأن المركز يضمن لهم الوجود من حيث هو حضور، فنحن نفكر على سبيل المثال في حياتنا العقلية والمادية على أنها مرتكزة حول "أنا" وهذه الأنا هي مبدأ الوحدة الذي تقوم عليه بنية كل ما يدور في فضاءها (٣).

يرى دريدا أن الفكر الغربي قائم على الثنائية ضدية عدائية تتأسس عليها ولا توجد إلا بهذه الثنائية كثنائية: العقل/العاطفة؛ الذات/الآخر؛ المشافهة/الكتابة؛ الرجل/المرأة. وهذا الفكر يمنح الامتياز للطرف الأول على الثاني هو ما يسميه دريدا بـ"التمركز المنطقي" أي أنّ المعنى وظيفة المتحدث وسابق على اللغة التي هي مجرد وسيلة ناقلة له من موقع "أصلي" إلى محطة أخرى.

ويرى دريدا أن الأسبقية تكون للكتابة على اللفظ والكتابة عند دريدا لا تعني الكتابة بمفهومها المألوف الذي يرى فيها مجرد تصوير وتمثيل للأصوات المنطوقة ويؤكد أن الكتابة كانت دائماً تخضع لهيمنة اللفظ مما جعل التمركز المنطقي عنده مرادفاً دقيقاً للتمركز الصوتي (١).

(١) حوار مع جاك، دريدا، كريستيان، ديكان، مجلة الفكر العربي المعاصر، ١٩٨٢، ص ٢٥٤.

(٢) النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، إبراهيم محمود خليل، دار الميسرة، ٢٠٠٣م، ص ١١٠.

(٣) المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، محمد شبل الكومي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ص ٣١٥.

ويرى دريدا أن التفكير ليس عملية نقدية بل النقدية موضوعها التفكير لأن عملية التفكير ترتبط أساساً بقراءة النصوص وتأمل كيفية إنتاجها للمعاني وما تحمله بعد ذلك من تناقض فهي تعتمد على حتمية النص وتفكيكه.

معنى هذا أن التفكيكية تأخذ على عاتقها قراءة مزدوجة فهي تصف الطرق التي تضع بواسطتها المقولات التي تقوم عليها أفكار النص المحلل، تضعها موضع تساؤل وتستخدم نظام الأفكار التي يسعى النص في نطاقها بالاختلافات وبقية المركبات لتضع اتساق ذلك النظام موضع التساؤل^(١).

وقد فسرت كثير من القراءات على أنها هجوم على الكتاب لأنها تكشف عما عندهم من تناقضات مع أنفسهم أو وجود عوامل تفكير ذاتية لأننا اعتدنا على اعتبار أن التناقض مع الذات أمر لا محيد عنه فيما يقول دريدا أولاً محيد عنه أي نص يطرح مشكلات كبرى على الأقل.

من هنا فالتفكير حلقة أساسية في النصوص التفكيكية وهي تهدم تراكيب الكتابة مع غيرها من المستويات، والتفكيكية بهذا المفهوم نشاط قراءة يبقى مرتبطاً بقوة النصوص واستجوابها^(٢).

✚ وحسب دريدا فالتفكير ليس عملية نقدية بل النقدية موضوعها التفكير. ولتحقيق أهدافه وطموحاته

يقترح التفكير مجموعة من المصطلحات أهمها:

١- الاختلاف:

تعد مقولة الاختلاف أحد المرتكزات الأساسية للمنهجية التفكيكية واستناداً لكشف الدلالة المعجمية (difference) التي تتألف من فعل أو مصدر يدل على عدم تشابه والمغايرة والاختلاف في الشكل والخاصة، (differ) وتعني التشتت والانتشار والتفرق والبعثرة والمغايرة في المكان والزمان.

يقوم مصطلح الاختلاف على تعارض الدلالات بين الحضور والغياب، فدريدا يرى أن الخطاب الأدبي يكون تياراً غير متناه من الدلالات وتوالد المعاني لا تعرف الاستقرار والثبات فإنها تبقى مؤجلة ضمن نظام الاختلاف، وهي محكومة بحركة حرة أفقية وعمودية دون توقع لنهاية محددة لها.

إن الوظيفة المهمة للاختلاف هي ما يصطلح عليه دريدا بالكتابة البدائية (archi-writing) وهي نمط من الكتابات سابق للكتابة نفسها، أي ذات ميزة قبلية متصورة للكتابة قبل تجربة الكتابة، فهي تنتج شكل الحضور وعادة ما تكون أنظمتها موضوعية بالنسبة لموضوعها وكل أشكال المعرفة الأخرى.

(١) دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢م، ص ١٠٩.

(٢) مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٢م، ص ١٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣١.

الاختلاف عند دريدا هو فعالية حرة غير مقيدة، ويوجز تعريفه لها بالقول: "إنَّ الاختلاف لا يعود ببساطة لا إلى التاريخ ولا إلى البنية فالاختلاف يوجد في اللغة ليكون أول الشروط لظهور المعنى" (١).

٢- التمرکز حول العقل:

يعنى به دريدا "التضافر لتأسيس بنية قوة في خارطة الفكر ويعتمد على اقتحام سكونية الميتافيزيقا وإعطاء الكلمة المنطوقة قيمة عالية بسبب حضور المتكلم والمستمع وقت صدور القول، فليس ثمة فاصل زمني أو مكاني، بينهما فالمتكلم يستمع في الوقت الذي يتكلم فيه، وهو ما يفعله المستمع في الوقت ذاته، إن سمة المباشرة في الفعل الكلام تعطي قوة خاصة في الفهم المباشر سواء تحقق كاملاً أو غير كامل أمّا الكتابة فإنها تكتسب أهميتها من خلال التمرکز حول العقل، حيث يصبح الكلام مستحيلاً ولهذا يضع الكاتب أفكاره على الورقة، فاصلاً إياها عن نفسه، ومحولاً إياها إلي شيء قابل لأن يقرأ من شخص آخر بعيد، حتى بعد موت الكاتب، وكل هذا يفتح الآفاق لمزيد من الاحتمالات ومن هنا ينشأ الاختلاف الكبير بين الكلام والكتابة" (٢).

وأبرز الحقول المعرفية التي امتد إليها نقد دريدا حول التمرکز المنطقي وهي في الحقيقة منظومة حقول معرفية متداخلة تصدى لها بمنهجية التفكيكية في القراءة لكشف مظاهر التمرکز المنطقي فيها وهي:

١-الأولية الاستمولوجية: ولقد عدّ العقل والإدراك مركزاً للحضور وحقيقة الأمر أنهما ليسا إلا نتاجاً لوحدة العقل والحقيقة فالوعي يحضر حالاً من تلقاء نفسه.

٢-الأولية التاريخية: تتحقق انطلاقاً من الماضي صوب المستقبل في ثلاث حالات التمظهر تعالي الأشكال - مقولات الخالق.

٣-الأولية الجنسية: تتحقق بواسطة حضور الذكورية المتمثلة في سلطة الرجل، والغياب عند المرأة.

٤-الأولية الوجودية: أهم الحقول المنهجية لدى دريدا لما يمثله الوجود من حضور ذاتي صاف مقابل الغياب العدم.

٥- التأويل الأدبي: تتجه إلى التعدد القرائي الناتج عن التأويل، والسعي إلى التعدد اللانهائي للمعنى.

٣- علم الكتابة:

التأسيس إلى تحديث الفكر بقلب التدرج التقليدي من أفضلية الكلام على الكتابة مع إمكانية تصوير الكلام على أنه مشتق من الكتابة (٣).

٤- القراءة:

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، علوش سعيد، بيروت، الدار البيضاء، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥، ص ٨٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، ص ١٢٨-١٣١.

يرى دريدا أن النص ليس ساحة تباينات، ومجال للتوتر والتعارض وحيز للتبعثر والتشتت وذلك حيث يولد دوماً عن القراءة تفكك البنى وانفجار المعنى وتشظي الهوية.

الفصل الثاني: التفكيك وفن التأويل

إن غاية تفكيكية "دريدا" هي تأسيس ممارسة تأويلية تفكك تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بحقيقة واضحة ونهائية. وهي بذلك تتحدي من جهة (ميتافيزيقا الحضور) الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول نهائي. وتسعى من جهة ثانية إلى البرهنة على أن السلطة التي تمتلكها اللغة تتجلى في قدرتها على أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرة.

لا يختلف الباحثون في النشأة الدينية ل(فن التأويل)، وإن نشأة التأويل تعود أساساً إلى محاولة فهم النص الديني المسيحي؛ فقد كان لعامل التباعد اللغوي، ومعنى الكلمة في أصل وضعها، وما كانت تشير إليه في القديم، وكذا الاعتقاد بوجود معنى خفي وراء المعنى السطحي الظاهر، لانعدام الثقة بالقراءة الواحدة؛ كل هذه العوامل - كما يرى الدكتور حامد نصر أبو زيد- كان لها دور كبير في نشر التأويل في هذه النشأة الدينية^(١).

أما التأويل في النقد الحديث، قد اعتمد على الكشوفات اللسانية الحديثة التي بدأت بأفكار عالم اللغة (فرديناند دي سوسير) التي توجت بظهور علم الإشارة (السيميلوجيا) مروراً بالمنهج البنوي، وتفكيكية (دريدا) وصولاً إلى نظريات التلقي هذه النظريات والمناه التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النقد الأدبي والنظر إلى حيث الشكل والمضمون.

هكذا اهتدي النقد الأدبي الحديث إلى المنهج التأويلي الذي نعتقد أنه يمنح النص أبعاداً لا نهاية له، فكل متلق -حسب نظرية التلقي- يضيف بعداً جديداً ويغنيه بطريقة ما.

وربما معترض يقول: ربما يحمل النص أكثر مما يحتمل من عمق الدلالة، والجواب على ذلك -كما أكدت النظريات الحديثة- أو ما بعد الحداثة- إن المعنى ينبثق من خلال الممارسة الخطابية وهنا تصبح اللغة لا تدل على المعنى؛ وإنما تتجه، يقول (دريدا): "إن عدم محدودية الدلالة في الكتابة هي من سمات ما بعد الحداثة"^(٢).

ويركز غيكو في صياغته لقضايا التأويل على معطيات تطبيقية، تنتمي إلى التفكيكية، أو التأويل المضاعف، وإلى السميوزيس، التأويلية كما يسميها هو، ويمثل التأويل لديه صياغة جديدة لقضايا فلسفية، لكنه يقف عند حالتين من التأويل، الحالة الأولى يكون فيها التأويل محكوماً بمرجعياته، وحدوده وقوانينه الضابطة، حيث تحيل كل علامة إلى أخرى، وفق مبدأ المتصل الذي يحكم الكون الإنساني، وهنا تتحكم بالتأويل فرضيات

(١) الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص، حامد نظر أبو زيد، مج ١، ع ٣، ١٩٩١م، ص ١٤١.

(٢) التأويل، المنطلقات، الحدود، الغايات، مجدي ممدوح، صحيفة الأديب، ع ١٠٤، ص ٤.

خاصة بالقراءة. أما الحالة الثانية فيدخل التأويل فيها متهات لا تحكمها أية غاية، لأن النص يبقى مرجعية متداخلة، تعمل على إدراج التأويل داخل كل المسيرات الدلالية الممكنة، وضمن كل السياقات، والتأويل هنا لا يسعى إلى غاية محددة، لأن الغاية تبقى هي الإحالات ذاتها، ويندرج هذا التأويل في إطار الفلسفة، التاريخ، السياسة (١).

الفلسفة التأويلية وعلاقتها بالتفكيكية:

لقد" زواج هايدجر تلميذ هوسرل بين (الهيرمنيوطيقا، والفينومينولوجيا) بعد أن خالف أستاذه في المبدأ الذي ينطلق من الذات المثالية (المتعالية)، باعتبارها المركز على حساب الوجود واللغة وذهب إلى الانطلاق من الوجود فالذات والموضوع كلاهما يوجد في الوجود الذي يعده هايدغر المكان الذي يجمع الإنسان مع غيره فأعطى اللغة الأسبقية في الوجود عن المعنى" (٢).

وقد كان التداخل بين فلسفة دريدا وهايدغر يصل إلى حد التطابق في الكثير من المقولات، وإن كانت نظرة كل واحد منهما للغة والأدب فلسفية الجذور، فإن دريدا قد دخل مصطلح "التدمير" من فلسفة هايدغر، وقد وصلت درجة التداخل بين المجالين ومباشر التأثير إلى استخدام "دريدا" في الطبعة الفرنسية الأولى لكتابه " la De " Grammatologie لكلمة "التدمير" المحورية في فلسفة هايدغر بدلا من كلمة "التفكيك" التي تحول إليها دريدا فيما بعد، والواقع أن بض الأفكار الأساسية لتفكيك دريدا مثل: المعرفة، اللغة، الحضور والغياب، لانهائية الدلالة، رفض الثوابت والقراءات المتعددة، غياب المركز الثابت للمعرفة، التناص، وفوق هذا وذاك مفهوم التدمير ذاته تتطابق مع فلسفة هايدغر التأويلية بصور تتخطى حدود المصادفة أو تواتر الفكر" (٣).

كانت استراتيجية مناص محطة أخرى التقى فيها الفكر الدريدي التفكيكي بالفكر الهيدغري. فالنص عند هايدغر ما هو إلا سجين يعتمد في ظهوره على لغات ونصوص سابقة وهو نقطة تلتقي فيها نصوص أخرى سابقة في وجودها على وجوده "إن مسألة الكينونة تعيد هايدغر إلى شعر بارمنيديس Parmenides وهيراكليطاس Héraclitus وأناكزيمنادر Anaximnader إن النص التفكيكي المعاصر يعود إلى نصوص أخرى سابقة ويبدأ منها، النص الهيدجري يحتوي على رماد ثقافي" (٤). والتناص هو مبدأ من المبادئ التي قامت عليها القراءة منها التفكيكية.

(١) التأويل بين السيميائية والتفكيك، مفيد نجم، الأسبوع الادبي، سوريا، ع ٧٥٣.

(٢) إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر، عبد الغني بارة، ص ٨٩.

(٣) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عبد العزيز حمودة، دار المعرفة، ١٩٩٩م، ٢٦٣، ٢٦٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦٦.

الفصل الثالث: التفكيك والتقويض

ترجم مصطلح (deconstruction) إلى العربية بخلاف الترجمة الشائعة (التفكيكية) إلى ما ذهب إليه (صاحباً دليل الناقد الأدبي) (التقويفية)، وكلا الترجمتين تركزان على الدلالة الحرفية، التي تحيل عليها الكلمة الفرنسية وهو التفكيك أو التقويض أو التدمير.

التقويض أقرب إلى من التفكيك إلى مفهوم دريدا، باعتبار أن التقويض لا يلتبس بمفهوم ديكرت وميكانيكية تفكيكية للمفاهيم، وكذلك مفهوم التقويض يتناسب مع الاستعارة التي يستخدمها دريدا في وصفه للفكر الماورائي الغربي، وإذ يصفه باستمرار بأنه صرح أو معمار يجب تقويضه.

ويفضل بعض العلماء استخدام لفظة التقويض بدلاً من التفكيك وهو يدل على القراءة النقدية المزدوجة التي اتبعتها دريدا في مهاجمته الفكر الغربي الماورائي منذ بداية الفكر حتى يومنا هذا، والتقويض^(١).

حيث ان الناقد السعودي سعد البازعي والناقد الجزائري عبد الملك مرتاض هما أول من اقترحا مصطلح: التقويفية أو التقويض، فقد كان البازعي سابقاً إلى اقتراح مصطلح التقويفية واعتباره أدق من التفكيك رغم استمراره في استعمال مصطلح التفكيك لشيوعه. يقول البازعي: "المفترض هنا أن عبارة "تفكيك" هي المقابل الدقيق لكلمة "Déconstruction" ولكنها ليست كذلك في ما أن الكلمة الأجنبية تعني نقض البناء أو هدمه أي اللابنائية فلعل عبارة "التقويفية" هي الأدق ولكننا سنستمر مع ذلك في استخدام عبارة "تفكيك" لشيوعها على أن يفهم المقصود الاصطلاحي بها، وسندرك أهمية تحديد التفكيك بأنه النقض حين ندرك أن العبارة إلى "العدمية" بالمفهوم الذي وضعه فريديريك نيتشه"^(٢).

ويقول البازعي رفقة زميله ميجان الرويلي: "التقويض هو المصطلح الذي أطلقه الفيلسوف الفرنسي المعاصر جاك دريدا على قراءة النقدية (المزدوجة) التي اتبعتها في مهاجمته الفكر الغربي الماورائي منذ بداية هذا الفكر حتى يومنا هذا، وقد حاول بعضهم نقل هذا المصطلح إلى العربية تحت مسمى "التفكيك" لكن مثل هذه الترجمة لا تقترب من مفهوم دريدا حالها في هذا حال مصطلح التقويض. على أن التقويض أقرب من التفكيك إلى مفهوم دريدا"^(٣).

(١) دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، ص ١٠٧.

(٢) تحيزات النقد الأدبي الغربي في إشكاليه التحيز، رؤية معرفية ودعوة للاجتهد محورا : مشكلة المصطلح، الأدب والنقد، التحيز، رؤية معرفية، سعد البازعي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية، ط ٣، ١٩٩٨م، ص ١٩٠.

(٣) دليل الناقد الأدبي، ص ٥٣.

ونشر عبد الملك مرتاض بحثاً عام ١٩٩٩ بعنوان "نظرية التقويض" (مقدمة في المفهمة والتأسيس) تحدث فيه عن إشكالية نقل هذا المصطلح وانتقد ما شاع لدى النقاد الحدائين من العرب من استعمال "التفكيك" و "التفكيكية" واقترح بدل ذلك مصطلح "التقويض" يقول مرتاض: "ولقد شاع لدى النقاد العرب الحدائين استعمال مصطلح "التفكيك" والأشيع من ذلك مصطلح التفكيكية وهو مصطلح من الصعب أن نوافق عليه لأنه لا يستند في الاستعمال إلى أي عاقلة دلالية مما يؤدون.. من أجل كل ذلك نقتح استعمال مصطلح " التقويض" مقابلاً للمصطلحين الانجليزي والفرنسي Déconstruction عوضاً عن مصطلح التفكيك الذي بدأ يشيع بين النقاد العرب لأنه لا يستطيع أن يحتل، ولا أحد يستطيع أن يجعله يحتمل دلالة المصطلح الأجنبي من الوجهة المعرفية"^١.

وأما هدف التفكيك في البدء فهو "تقويض الميتافيزيقا الغربية أصال حتى لا يبقى للغرب العقلاني، التتويري ما يفاخر به أمام النزعة التفكيكية المتنامية داخل أوساط فكرية يهودية معنية، إنطلاقاً من أن مصطلح الشتات أو التشتيت أو اللامركزية هو الثابت، الوحيد الذي ينبغي الأخذ به"^(٢). وتهدف القراءة التقويضية إلى إيجاد شرح بين ما يصرح به النص وما يخفيه"^(٣).

ونجد أن الدكتور "عبد المالك مرتاض" الذي سبق له أن (استعمل) التفكيكية في كتبه: ألف ليلة وليلة عام ١٩٩٢ وتحليل الخطاب السردي عام ١٩٩٥م، مثلما استعار التشريحية إلى جانب التفكيكية في كتابه أ.ي، قد انقلب على هذه الاختيارات الاصطلاحية الأولى، مفصلاً عليها مصطلحه الجديد التقويض أو نظرية التقويض، أو التقويضية التي يخص بها المصطلح الفرنسي (Déconstructionnisme) من باب، أصل المعنى في فلسفة "دريدا" تقويض يعقبه بناءً على أنقاضه، على حين أن معنى التفكيك في اللغة العربية يقتضي عزل قطع جهاز أو بناء على بعضها البعض دون إيذائها أو إصابتها بالعطب، كتفكيك قطع محرك أو أجزاء بندقية"^(٤).

يعد "عبد المالك مرتاض" من النقاد العرب الذين حولوا مصطلح التفكيكية إلى مصطلح آخر وهو التقويضية التي تعني تشتيت عناصر الشيء دون إخلالها أو كسرها أو زيادة عنصر منها أو نقصان.

(١) ينظر نظرية التقويض (مقدمة في المفهمة و التأسيس)، عبد الملك مرتاض، مجلة عالقات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، مج ١٠، ج ٣٤، ١٩٩٩م، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(٢) أحادية الآخر اللغوية، جاك دريدا، تر: عمر مهيبيل، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٦.

(٣) دليل الناقد الأدبي، ص١٠٨.

(٤) إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، عيسى و غليس، الدار العربية للعلوم، ناشرون، ٢٠٠٨م، ص٣٤٧.

ألفينا الناقدين الدكتورين "ميجان الرويلي و سعد البازعي" يدافعان عن "التقويض و التقويضية" بذات اللهجة التي يدافع بها "مرتاض" مع استبعاد تأثيره فيهما أو تأثيرهما فيها لأن الطبعة الأولى من كتابهما "دليل الناقد الأدبي" قد صدرت سنة ١٩٩٥ أيضا.

إضافة إلى ذلك، فالتقويض لا يقبل مثل ما يذهب إليه أهل التفكيك في مقولة البناء بعد التفكيك، كما أن مفهوم التقويض يتناسب مع الاستعارة التي يستخدمها "دريدا" في أو معمار يجب تقويضه وصفه للفكر الماورائي الغربي؛ إذ يصفه باستمرار بأنه صرح بقوله ، ولئن انطوى مفهوم التقويض على انهيار البناء فإن إعادة البناء تتنافى مع مفهوم "دريدا" للتقويض.

فالدكتوران "ميجان الرويلي وسعد البازعي" سلكا طريق "عبد المالك مرتاض" في تقريبهم لمصطلح التفكيكية بالتقويضية، فهم يرونها لا تمثل البناء بعد التفكيك في فلسفة دريدا.

"إن أرخنا بسنة ١٩٨٥ للبداية التفكيكية العربية؛ تاريخ صدور أول تجربة نقدية عربية تصدع بانتمائها الصريح إلى أبجديات القراءة التفكيكية التشرحية، وهي تجربة الناقد السعودي الكبير "عبد هلال الغدامي" في كتابه الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشرحية (Déconstruction)."

ويرفض حميد الحمداني الترجمة التي اقترحها بعض النقاد لهذا المصطلح، وهي "التقويض"؛ حيث يرى أن هذه الترجمة غير دقيقة، وأن هناك اختلافا كبيرا بين كل من التفكيك والتقويض، لكن دون أن يحدد طبيعة هذا الاختلاف. يقول: "يبدو أن هذه الترجمة غير دقيقة لمصطلح دريدا؛ لأن المقابل الفعلي للتقويض، هو (destruction) وهناك اختلاف كبير في المعنى بين التقويض والتفكيك" (١).

غير أن ما يدعو إلى الدهشة، هو أن لحمداني، رغم اعتماده التفكيك مقابلاً لـ déconstruction ، ورفضه مصطلح "التقويض"، إلا أنه يذهب، وفي الصفحة نفسها، إلى أن "المعنى العام للتفكيك هو التقويض!"، ورغم اعتباره الهدم ترجمة لمصطلح (destruction) (٢)، إلا أنه عاد في آخر الكتاب ليترجم الـ (déconstruction) بالهدم! (٣).

(١) الفكر النقدي، حميد الحمداني، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ٢٠٠٩م، ص ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الخاتمة:

تناولنا في هذا البحث مصطلح التفكيكية التي تحاول أن تكشف عن تناقضات النص وشروخه ، ووهم الاستقرار الذي يحاول أن يوحي به، وكل ذلك من أجل زعزعة وخلخلة وهم المعنى المنسجم أيضا الذي يخلص إليه الناقد أو المؤول على حساب فائض المعنى الذي يتدفق من النص.

إن عبارة الحركة التفكيكية لها معنيان في آن معا. أحدهما فضفاض والآخر محدود. ففي معناها الفضفاض تتسع الحركة لتشمل ما هو أبعد من النقد الأدبي، إذ صار " التفكيك " شعارا يؤشر على توجه معين في العلم السياسي والتاريخ والقانون مثلما الحال في دراسة الأدب.

إن القراءة التفكيكية على حد تعبير جيرار جنومبر تستهدف تفجير النص انطلاقا من مبدأ اللاتماس وجعله يلعب ضد ذاته.

هناك من يرى أن التفكيكية تتجلى في أنها تقوض مفهوم الحقيقة بمعناه الوضعي التجريبي وتحول سؤال الفكر إلى مجالات اللغة والتأويل.

ويرى بعض العلماء أن التفكيكية في روحها وفلسفتها جاءت لزعزعة وخلخلة المفاهيم التي تمكنت من الثقافة الغربية وأصبحت في حكم المسلمات، بهدف بيان زيفها وتقويضها في النهاية وترى التفكيكية أن كل تأويل وقراءة ومعنى هو ترتيب مؤقت ونجاح مؤقت في إيقاف تدفق المعاني اللا منتهى الذي يولده النص، وأن النص والقارئ يتفاعلان لإنتاج لحظات مع المعنى تكون دائما مختلفة وعابرة.

المصادر والمراجع:

١-أحادية الآخر اللغوية، جاك دريدا، تر: عمر مهيبيل، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

٢-البنوية والتفكيك، مداخل نقدية مجموعة من الكتاب، تر: حسام نايل، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م.

٣-التأويل بين السيميائية والتفكيك، مفيد نجم، الأسبوع الادبي، سوريا.

٤-التأويل، المنطلقات، الحدود، الغايات، مجدي ممدوح، صحيفة الأديب، ع١٠٤.

٥-حوار مع جاك، دريدا، كريستيان، ديكان، مجلة الفكر العربي المعاصر، ١٩٨٢م.

٦-دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢م.

٧-دليل النظرية النقدية المعاصرة، بسام قطوس، جار فضاءات للنشر والتوزيع، ٢٠١٦م.

٨-الكتابة والاختلاف، جاك دريدا، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠م.

- ٩-المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، محمد شبل الكومي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م.
- ١٠-معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، علوش سعيد، بيروت، الدار البيضاء، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٥م.
- ١١-مناهج النقد الأدبي الحديث، وليد قصاب، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٩م.
- ١٢-مناهج النقد الأدبي، يوسف وغليسي، دار جسر للنشر و التوزيع، الجزائر، ط ٣.
- ١٣-مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٢م.
- ١٤-نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ديفيد بشندر، عبد القدوس عبد الكريم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.
- ١٥-نظرية التقويض (مقدمة في المفهمة و التأسيس)، عبد الملك مرتاض، مجلة عالمان في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، مج ١٠، ج ٣٤، ١٩٩٩م.
- ١٦-النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، إبراهيم محمود خليل، دار الميسرة، ٢٠٠٣م.
- ١٧-الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص، حامد نظر أبو يد، مج ١، ع ٣، ١٩٩١م.